

نماذج من كتابات حول البطريرك إسطفان الدويهي

(بحسب التسلسل الزمنيّ)

وبعد فيقول الأب المجيد مار إسطفانوس بطرس الدويهي بطريرك الكنيسة الأنطاكيّة. وأبو الملةّ المارونيّة. وراعيها على مياه مراعيها. ويريد البيعة الرومانيّة الساعي في حميد مساعيها. جهيد العلوم الرياضيّة واللاهوتيّة. ومؤيد الأحكام الروحيّة والشرعيّة. سليل مدارسها. ومحبي دوارسها. من تقلد الرئاسة الكنائسيّة فكان لها برهاناً كافيّاً. وزاول من غير سامّة علاج مزاج الأرواح فكان لها طبّاً شافيّاً. قرن بين العلم والعمل. فمال ما توخّاه من حُسن الأمل. أحسن السلوك وجاز على أحسن صيغة وطريقة. ففاز إذ جاز الرسم بجوهر الحقيقة. طالما سعى ورعى ولم يَكُفْ نُهْدُه ولا حبا زُنْدُه ولا نبا حُدُه. أجزل الله ثوابه وجزاه. وكافاه خير المكافاة.

رشيد الخوري الشرتوني،

"مقدّمة المؤلّف" في منارة الأقداس، الجزء الأوّل، عُني بطبعه لأوّل مرّة عن نسخة دير اللوزة رشيد الخوري الشرتوني، بيروت، المطبعة الكاثوليكيّة، ١٨٩٥، ص ٣٢.

###

وقد حفظ لنا "دي لاروك" في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان رسالة أنفذها لويس الرابع عشر ملك إفرنسة إلى هذا البطريرك هذه ترجمتها:

"إلى البطريرك إسطفانوس بطرس الأنطاكيّ
أيّها السيّد الأجلّ"

قد رفع إليّ الخوري الياس، كاتب سرّكم، الرسالة التي كتبتموها إليّ في ٢٠ من آذار سنة ١٧٠٠ وعلمت منها، متأسّفاً، المحن التي يقاسيها الكاثوليكيون أبناء ملّتكم المارونيّة في جبل لبنان، وشدّة الضنك الذي تقاسونه لوقاية شخصكم من الإهانات التي ينزلها البعض بكم. ولما كنت مستعدّاً أن أبذل دائماً كلّ ما بوسعي من العناية بتأييد الدين الكاثوليكيّ الرسوليّ الرومانيّ في كلّ مكان، ولاسيّما في أرجاء بطريركيّتكم حيث تعاضمت المحن، قد سلّمت إلى كاتب سرّكم رسالة جدّدت بها الأمر الذي أصدرتُه قبلاً إلى سفيري بالقسطنطينيّة أن يصرف عنايته واهتمامه لينال من الباب العثمانيّ كلّ ما يمكن من الأمور العائدة بالنفع للدين الكاثوليكيّ في بلاد الموارنة ليجعلكم تشعرون بمفاعيل حمايتنا وإجلالنا لكم خاصّة. واسألُه تعالى، أيّها السيّد الأجلّ، أن يحفظكم بحراسته المقدّسة. كُتِبَ في مارلي في ١٠ آب سنة ١٧٠١، التوقيع لويس. وفي أسفل الصحيفة كولير".

المطران يوسف الدبس،

"في تاريخ سورية في أيام السلاطين العثمانيين العظام، فصل ٢، عدد ١٠٢٣" في تاريخ سورية، الجزء الرابع، المجلد السابع، لا طبعة، بيروت، المطبعة العمومية، ١٩٠٢، ص ٣١٢-٣١٤.

###

سنة ١٦٣٠ م كان حبراً أعظم في رومة البابا أوربانوس الثامن، وبطريكاً على الطائفة المارونية جرجس عميرة، وسلطاناً في القسطنطينية مراد الرابع، وأميراً نافذ الكلمة في لبنان فخر الدين المعني الثاني.

في تلك السنة، في ٢ آب، ولد إسطفانوس الدويهي في إهدن، وسمي باسم القديس المعيد ذكره في ذلك النهار في السنكسار الماروني. أبوه الشدياق مخايل، وأمه الحاجة مريم، من بيت الدويهي. تعلم مبادئ القراءة العربية في ظلّ كنيسة القرية سنة ١٦٤١، ثمّ سافر إلى رومة، فدرس في إكليريقيتها المارونية تحت إدارة الآباء اليسوعيين. وانتمى إلى أخوية العذراء القديسة، وكمل برنامج الدروس كما كان في أيامه في التعليم مشابهاً لما نعهده اليوم في المعاهد الثانوية والعليا. ونجح نجاحاً أهله للوقوف في محفل علماء وكرادلة رومة مجادلاً ومدافعاً عن قضايا الفلسفة واللاهوت، فنال شهادة الملمنة أو الدكتوراه، وعاد إلى لبنان سنة ١٦٥٥ م، ولم يستكف عن تعليم الأولاد، فأفادهم واستفاد، لأنّه في تعليمهم عوّض عمّا نقصه من درس اللغة العربية، وكان ضعيفاً فيها وقد هاجر من لبنان إلى أروبة وهو في السنة الحادية عشرة من عمره. فما عتّم أن قبض على ناصية اللغة، وألم بالألفاظ ومعانيها، وتمكّن من الكتابة والخطابة بالعربية بأسلوب وضح شهّي غير خالٍ من الخلل في قواعد الصرف والنحو، وغير عارٍ من لون الإبتكار، على ما فيه من شتى المواد المأخوذة جمعاً وتصنيفاً عن الأقدمين.

وكان إسطفانوس الدويهي، بين سائر كهنة زمانه، أرقى علمًا وفصاحة من أن يقارنه الكثير من أمثاله. وكانت مدينة حلب إذ ذاك في عزّها، وكنيسة الموارنة فيها تجمع نخبة المسيحيين الكاثوليك. فأرسل إليهم واعظاً سنة ١٦٦٢ م في عهد الأسقفين جبرائيل ومخائيل البلوزاني، وأقام هناك إلى سنة ١٦٦٨ م. ويتحدّث الحلبيون إلى يومنا عن إقبال المسيحيين في ذلك العهد لسماع عظاته، فتضيق بهم الكنيسة فينقل المنبر إلى جانب الباب، ومنه يبلغ الصوت إلى الجماعة الواقفين في الفسحة الخارجيّة، وبينهم الكاثوليكّي والغير [وغير] الكاثوليكّي. وقد طالعنا عند المثلث الرحمة المطران عبدالله الخوري مجموعة عظات تُرَجِّح الدلائل أنّها من قلم إسطفانوس الدويهي، ومّا يكون قد ألقاه في حلب.

الأب فردينان توتل،

"البطريك إسطفانوس الدويهي وتاريخ الأزمنة" في مجلّة المشرق، السنة الثالثة والأربعون، عدد كانون الثاني- آذار ١٩٤٩، ص ١٤-١٥.

###

وكان من أبرز الطلاب الذين عادوا إلى وطنهم لبنان ومن ألمعهم إسطفان الدويهي (ويُعرف في الغرب باسمه اللاتيني Aldoensis ١٦٣٠-١٧٠٤) الذي تسّم أرفع الرتب الإكليريكية في كنيسته. [...] وُلِدَ إسطفان الدويهي في إهدن، وذهب إلى روما وهو بعد في الحادية عشرة من عمره حيث قضى أربع عشرة سنة. وفي سنة ١٦٧٠ أصبح بطريكاً، ولكنّ تسّمه سدة البطريكية لم تُرُق لأبي نوفل الخازن صاحب كسروان وقنصل فرنسة لأنّه لم يُستشَر في الأمر. غير أنّ البطريك قام بزيارته شخصياً فزال ما كان بينهما من سوء تفاهم. إلا أنّ عهد بطريكته كانت تشوبه غيوم قائمة وحوادث مؤلمة. يقول عن نفسه إنّه ناله من البلاء وأصابه من الاضطهاد ما لا يمكن وصفه. وكان آل حمادة، مقاطعجية باشا طرابلس، يفرضون عليه الضرائب الفادحة التي لم يستطع أن يؤدّيها لهم. وكان أحياناً يضطرّ إلى الهرب إلى المغاور والكهوف بالرغم من أنّ مقرّ البطريكية في قنوبين في وادي قاديشا كان ملجأ حصيناً منيعاً لا يُمكن الوصول إليه. حتّى إنّ أوروبياً زار الدير لم يتمالك عن إبداء دهشته بقوله إنّ الذي يبغى الوصول إليه يحتاج إلى جناحين. وقد وجد قسيس إنكليزيّ كان يقوم بالخدمة الروحية للجالية الإنكليزية في حلب أنّ في دير قنوبين جرسين يُقرعان عند دعوة الرهبان إلى الطعام، وهو امتياز لم يُعطَ لأيّ دير أو كنيسة أخرى في البلاد كلّها، ولو أنّ قرعَ هذين الجرسين بلغ مسامع الأتراك لما كانوا سمحوا بإقامتهما.

فيليب حتّي،

"الطلاب الموارنة في روما" في لبنان في التاريخ، منذ أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر، ترجمة الدكتور أنيس فريجة، مراجعة الدكتور نقولا زيادة، بيروت- نيويورك، مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، ١٩٥٩، ص ٤٨٨ - ٤٨٩.

###

وذاع صيته في البلاد الإيطالية، وأثنى عليه كلّ من سمعه أو سمع به، حتّى قيل إنّه لم يكن له شبيهة في إيطاليا، وإنّ الله لم يمنّ على أحد من أقرانه بما منّ عليه به من العقل، وإنّه أدرك من المعارف ما لم يدركه أحد منهم. فحصل من ذلك للمدرسة شرفٌ عاظم. وطارت سمعتها بين أهل العلم...

قال البطريك سمعان عوّاد الذي نشأ في رومه، وعزّف عوائد مدارسها، إنّ معلّمي إسطفان لم يُضطّروا قطّ إلى الأخذ بناصره لما كان يجادل، بل كانوا يتكفون وشأنه يجاوب الأساتذة الفقهاء. وكانوا يفتخرون بانتصاره عليهم، وبرّدّه اعتراضاتهم، ومدافعتهم عن رأيه.

وكلّ من حضر هذه المحاورات كان يعجب من ذكاء إسطفان. ويمجد مؤرّع العقول والمواهب. وكان كلّ مرّة نوى إنشاء محاوره علمية يشيع خبره، ويتناقله الرومانيون كما يتناقلون أخبار حفلات الأعياد التي تصير في معابدهم الكثيرة.

المطران بطرس شبلي،

ترجمة أينا المغبوط إسطفان الدويهي بطريك أنطاكية، بيروت، منشورات الحكمة، ١٩٧٠، ص ٢٠.

###

جاء في الصفحة الخامسة من "التذكّار المؤيّد الثاني لتثبيت قانون الرهبانيّة الحلبية المارونيّة"، ما يلي: "أمّا ذلك البطريرك الملفان الواسع الخبرة والعلم، الممتليء من روح الربّ روح الحكمة والقداسة، والمتقدّ غيراً على مجد الله وخير الطائفة والكنيسة وخير النفوس، فقد استقبلهم (أي عبد الله قراعلي وجبرائيل حوّا ويوسف البتن) بما فُطر عليه من الدّعة، واحتضنهم بعطفه الأبويّ ومحبّته الصادقة. فازدادت ثقتهم به وجرأتهم لديه، فعرضوا له أنّ ما حملهم على المجيء إلى لبنان لم يكن إلاّ قصد الابتعاد عن العالم وإنشاء رهبانيّة جديدة... يكون لها قانون واحد، ترتبط به جميعها برهبانها وأديارها، ويكون لكلّ دير رئيس، وجميع أديارها رئيس عامّ واحد يؤازره أربعة مدبّرين، ممّا لم يكن مألوفاً في لبنان في ذلك العهد.

"فالبطريرك الدويهي الذي كان قد تخرّج في المدرسة المارونيّة بروما، وعرف الشرق والغرب حقّ المعرفة، سرّ جدّ السرور بتلك الفكرة التي لم تكن لديه جديدة، بل كانت منية قلبه، وفرح بما كثيراً في شيخوخته، لأنّه رأى بها إكليل جهاده، وأجاب الشبان الأتقياء على رغبتهم، بعد أن أطلعهم على وعورة المسلك وخطورته، ومدحهم لنبالة قصدهم، وأدرك أهميّة ما عزموا عليه. فاستبقاهم عنده كأنّه أراد أن يختبر دعوتهم بذاته، ولم يكن يفوته شيء من ذلك... وفي العاشر من شهر تشرين الثاني ألبسهم بذاته إسكيم الرهبانيّة في دير قوّيين كرسيّه، على سبيل التجربة، دون أن يبرزوا ندورهم، وأنعم عليهم بدير مرت مورا في جوار إهدن مسقط رأسه، وكان خراباً فرمّوه...".

الأباتي بطرس فهد،

"البطريرك العظيم إسطفان الدويهي"، في ردود ونبذات تاريخيّة، لا طبعة، جونيه، لبنان، مطابع الكُريم الحديثة، ١٩٧٢، ص ٢١٠-٢١١.

###

إنّ تاريخ الأزمنة الذي قام الدويهي بوضعه بعدما قضى عدّة سنين في البحث والتنقيب والمطالعات، يجب اعتباره دائرة معارف واسعة الاطلاع، عميقة الغور، تجمع بين دقّتها مختصراً منسّقاً لأخبار واعتبارات وحوادث جرت في الشرق على مدى أحد عشر قرناً متواصلًا، ابتداءً من سنة ٦٢٢ للميلاد حتّى سنة ١٧٠٠ تقريباً، وهذا ليس بالشيء اليسير طبعاً، وكما جاء في المقدّمة (ص يا) [مقدّمة مخطوط "تاريخ الأزمنة" المحفوظ في المكتبة الفاتيكانية تحت رقم ٢١٥ من القسم السرياني]: "ليس الغرض من هذا التاريخ البنيان التاريخيّ عن التصميم الظاهرة فيه الوقائع مع علاقتها بالزمان والمكان وبالنسبة إلى الشخصيات البارزة فيها حكاية لذيذة وعبرة قريبة المنال بل هو الإمام بأهمّ ما يتوجّب على الأديب الشرقيّ معرفته من حياة جلوده السياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة، ولست أدري هل ظهر قبل الدويهي من وضع كتاباً مختصراً شاملاً كاملاً مثل كتابه هذا؟!".

الأباتي بطرس فهد،

"مقدّمة الناشر" في تاريخ الأزمنة للعلامة الكبير إسطفان الدويهي البطريرك الأنطاكيّ المارونيّ، جونية، لبنان، مطابع الكُزيم الحديثة، ١٩٧٦، ص XX-XIX.

###

ما يهّمنا الآن هو أن نعرف أنّ البطريرك الدويهي أول مؤرّخ مارونيّ بمحصر المعنى، وأنّ الوجدان المارونيّ الواضح الخطوط لديه هو وجدان فاعل في حياة شعب وتاريخه المصنوع دون أن يكون للتاريخ المدوّن شأن كبير في صوغ هذا الوجدان. [...].

إنّ كتاب "تاريخ الأزمنة"، والعنوان ليس للدويهي، هو من نوع الكتابة التاريخيّة التي تكتفي بتدوين الأحداث التاريخيّة بشكل جدول يتبع توالي السنين. وهذا النوع من الكتابة التاريخيّة هو، باعتراف الجميع، أكثر الأنواع حياداً، [...].

وبالتالي فإنّنا نستطيع القول إنّ تاريخ الأزمنة هو تاريخ مارونيّ [...] محدّد جغرافياً ببلاد الشام، ومحدّد ثانياً من جهة المصادر، فهي عربيّة إسلاميّة ومسيحيّة شرقيّة وغربيّة [...].

[...] فالكتاب مؤلّف من قسمين متمايزين [...]. إنّ القسم الأوّل يبدأ من ظهور الإسلام وينتهي سنة ٣٩١ هـ. وهو يحتلّ الفصول الخمسة الأوّل في طبعة الأباتي فهد. أمّا القسم الثاني فيبدأ من سنة ١٠٩٥ م وينتهي سنة ١٦٩٩ م. وبين القسمين فراغ يقارب القرن.

فما معنى ذلك؟ [...] "لتاريخ الأزمنة" بدايتان إذن. بداية توافق "استيلاء الفرنج على سواحل هذه البلدان المقيمين بها"، وبداية تنطلق من المحجرة.

إنّ الدويهي لا يكتب التاريخ بعصبيّة، إلّا أنّ هناك فرقاً بين القسم الأوّل والثاني لجهة أسلوبه في الكتابة، قد يمكن تفسيره باختلاف المصادر وتوافرها. أو عدم توافرها بالنسبة للقسمين.

[...] على أنّه يحتفظ بموضوعيّة واضحة، تخلو من العصبيّة كذلك. [...] لكنّ احترام الموضوعيّة في سرد الحوادث لا يمنع الدويهي من أن يأخذ بالعامل الدينيّ في نظرتة إلى التاريخ وتفسيره.

ويظهر بوضوح أنّ الدويهي يربط صلة الموازنة بالفرنجة بصلتهم مع الكرسيّ الرسوليّ، وقد بدا بوضوح أنّه يجعل منها الأساس للعلاقة مع الغرب وأنها أخذت تتكتّف مع الزمن [...] في حين تراجع نفوذ الغرب عن بلاد الشرق. [...] وقد فسّرها حرّيّة للمسيحيين وقدرةً على الإعلان عن الذات وعلى النموّ.

ويبدو واضحاً أنّ بروز الموارنة بشكل مفاجيء في "تاريخ الأزمنة" مرتبط بتراجع الفرنجة [...] فيذكر الدويهي "الأمير حنا المارونيّ ...، الذي طلب الهدنة من المسلمين حينما ضعف الفرنجة"، ثمّ يذكر كيف قاوم مقدّمو الجبل الثلاثون صدّ هجوم المسلمين عليهم وانتصروا عليهم [...]".

وأبرز ما يلفت النظر في القسم الأخير من "تاريخ الأزمنة"، أي ابتداءً من القرن الخامس عشر، هو كثافة الأخبار المارونيّة [حين] بدأ الموارنة يرسلون طلاباً إلى رومة "ليتأدّبوا بعلوم الآباء الأطهار والكنيسة الرومانيّة المقدّسة"، وكيف انتشرت اللغة السريانيّة على يدهم في الغرب، وكيف بدأ تلامذة رومة تحضّة ثقافيّة، ثمارها معروفة في بلاد الشرق، [...]".

وما يلفت الانتباه هو أنّ القسم الأخير من "تاريخ الأزمنة"، الذي يؤرّخ القرنين السادس عشر والسابع عشر، ازدادت فيه نسبة الكلام عن لبنان وتضاءلت الأخبار الخارجيّة، وتركّز فيه بشكل واضح حول الموارنة [...]".

الأب [المطران أنطون] - حميد موراني،

"الوجدان التاريخي المارونيّ عند البطريرك إسطفان الدويهي" في الوجدان التاريخي المارونيّ بين القديم والجديد، محاولات تفسيرية، بيروت، [د. ن.]. ١٩٨١، ص ١١-١٧، ٢٠-٢١.

###

ثمّ اعتقبه الجليل بين الرؤساء، والنبيل بين العلماء، سديد الغيرة في العلوم والتصانيف الشهيرة، المناضل عن حسن الديانة وضيانة الأمانة، مار إسطفانوس الدويهي، المشهور بالصالحات. الذي فاق بعلومه وضاهى الآباء القديسين بتصانيفه وتفسيره، التي من جملتها "كتاب العشر منارات" ^١ في الشرح عن تقدم الأسرار. وهي كتاب عظيم، وبرهان قويم، بشروح مديدة، وآراء سديدة. وقد اشتهرت هذه المنارات شرقاً وغرباً. ومدحها العلماء كثيراً. وتعجبوا في فصاحته وعلمه الدقيق. ما عدا ما له من المصنّفات والمواعظ الكثيرة التي أفاد بها بيعة الله، لاسيّما الطائفة المارونيّة، التي نفى عنها كلّ شبهة ورأي ذميم، وأوضح شرفها الوسيم. وناهيك من فصيح سما في سماء البيعة، الذي ما كان ولا يكون مثله... وباقي أخباره العجيبة مرقومة في كتاب سيرته التي جمعها عوّاد البطريرك ^٢.

هذا (الدويهي) استمدّ التثبيت من البابا إقليموس الأول ^٣، عن يد القسّ يوسف شمعون الحصريّ، الذي فيما [في ما] بعد سامه مطراناً على مدينة طرابلس. وكانت الطائفة في عصره ساكنة. وهي مفرحة (فرحة) مسرورة براعيها الصالح، وفخرها الواضح. مزهرة بالعبادة وحسن اليقين والسلامة. وفيها كثيرون من المعلّمين (العلماء) كيوسف الحصريّ مطران طرابلس، والمطران جرجس ابن (٧٨) عبيد الهدناني، المشهور بالمواعظ، الذي لُقّب "بالكاروز" مطران إهدن (والراهب اليسوعيّ فيما [في ما] بعد)، والمطران بطرس

^١ "العشر منارات" أو "منارة الأقداس".

^٢ البطريرك سمعان عوّاد (١٧٤٣-١٧٥٦م). أسس دير سيّدة مشموشة وسكن فيه. له "ترجمة أينا وسيدنا المغبوط مار اسطفان الدويهي" نشره رشيد الشرتوني.

^٣ الصحيح هو اقليموس التاسع أو البابا كليمنس (١٦٦٧-١٦٦٩م).

(ضوميط) مخلوف الغوسطاوي^١، والقسّ مرهج ابن نمرون الباني، والخوري يوسف (اسكندر) القرطباني، والقسّ سمعان الفغالي، وغيرهم... الذين اشتهروا بالعلم والعمل.

ولما كانت الطائفة حاصلة على الصلح والسلامة، في حياة ذاك الراس المقدام، غالتها يد النوايب بموت راعيها (الدويهي) الذي لحق برّته موقراً بالصالحات في ٣ أيار سنة ١٧٠٤ (ألف وسبعمائة وأربع).

الشيخ انطونيوس أبي خطار العينطوري،

مختصر تاريخ جبّل لبنان، طبعة الأب اغناطيوس طنّوس الخوري، نظر فيها وحققها الياس قطّار، منشورات دار لحد خاطر بيروت، لبنان، ١٩٨٢.

###

للبطريك إسطفان الدويهي على كنيسته المارونيّة دينٌ. إنّه دين للابن على أمّه، إذا جاز القول وكان للأُم أن تفني ما لابنها عليها من حقّ واستحقاق.

لقد حمل الدويهي الكبير، في عقله وقلبه وعلى قلمه، همّ أمّه وأمّته وهو بعدُ طالبٌ على مقاعد المدرسة المارونيّة في روما، وكاهنٌ فيّ تنخيلّه جالساً على الحجارة تحت سنداينة الدير في إهدن، يعلم الأولاد ويبي فيهم الإنسان، وواعظاً يركز على المؤمنين من كلّ الطوائف المسيحيّة في حلب، ويعلم الكبار والصغار في «المكتب الماروني» الذي أسّسه في عاصمة الحمدانيّين، وأسقفاً على موارنة جزيرة قبرس يمارس بينهم وظيفة التقديس والتعليم والتدبير، ويفتّش، بالفيلة والسراج، على مخطوطة عتيقة مطمورة في إحدى الزوايا لينفض عنها الغبار فتتجلي الحقيقة حول الموارنة؛ وأخيراً بطريكاً يعتلي عرش أنطاكية طوّال أربع وثلاثين سنة يذود خلالها عن أمّته بلسانه وقلمه وقدوة حياته، متحدّياً الجهل والفقر والظلم، بـ "ردّ التهم" عنها و"الاحتجاج" لها، ورعايتها كحدّقة العين، خوفاً من التغريب والليتنة والذوبان.

إسطفان الدويهي، هو العملاق الرائد في مستوى مارون المؤسس، ويوحنا مارون البطريك الأوّل، ترك من الآثار العلميّة ما تعجز عنه إلّا مؤسّسة بكاملها: فكان العين الساهرة، واليد الهادية، والقلب الكبير الذي ما ينبض إلّا بحبّ ربّه وكنيسته التي أبرز هوّيّتها المميّزة في صورة ولا أبهى، بعراقة إيمانها، وقداسة تقاليدها، وروحانيّة رهبانها ومؤمنيها.

لئن فات الدويهي شرف خدمة كنيسته من على مطلّات منابر روما أو غيرها من عواصم الحضارة، فلكي يكون له شرف رئاستها وخدمتها في أعماق وادي قنّوبين... "لا تُعطوا الرجل الكبير - يقول جبران - بل خذوا منه، وهكذا تكرمونه".

^١ سيم أسقفاً على قبرس عام ١٦٧٣م؛ الدويهي، الأزمنة، توتل ص ٣٦٨.

الأب إغناطيوس سعادة، م.ل.،

"مقدمة" في البطريك إسطفانوس الدويهي: حياته ومؤلفاته، للخورى ناصر الجميل، طبعة أولى، بيروت، ١٩٩١، ص ٧، ٩.

####

يَعْتَبِرُ المورانة إسطفان الدويهي الإهدبيّ، تلميذ المدرسة المارونيّة في روما، أعظم بطاركتهم شأنًا، وأوّل مرجع علميٍّ في كتابة تاريخهم وتنظيم طقوسهم؛ لا بل إنه أحد كبار المؤرّخين العرب في العهد العثمانيّ، وأبو التاريخ اللبنانيّ الحديث، ورائد فدّ من رواد النهضة الفكرية في الشرق. جاء بعد المطران جبرائيل ابن القلاعي مفكرًا وكتّابًا ذا ثقافة جامعة، وخصب فكريّ غزير، وتركزت أبحاثه على التاريخ والليتورجيا. فهو أوّل عالم من الشرق المسيحيّ أعاد إلى الطقوس المارونيّة، التي كانت مهملة حتّى أيامه، أهمّيّتها وقديسيّتها. أمّا بالنسبة إلى التاريخ، الدينيّ والمدنيّ، الذي برع فيه إلى حدّ الريادة، فقد استند إلى مصادر متعدّدة الجوانب، من إسلاميّة ومسيحيّة، عربيّة وأجنبيّة على حدّ سواء. وتشكّل مراسلاته العديدة مصدرًا مهمًّا من مؤلفاته لم يُستغلّ بعد. إنّها تلقي أضواء جديدة على مختلف مراحل حياته الكهنوتيّة والأسقفية والبطريركية. ولا نغالي إذا قلنا إنّ حياته تصلح أن تكون مثالًا يُحتذى بالعلم والقداسة.

الخورى ناصر الجميل،

البطريك إسطفان الدويهي، حياته ومؤلفاته، طبعة أولى، بيروت، [د.ن.]، ١٩٩١، الغلاف الخارجي للكتاب.

####

[...] "راس الرؤساء والأئمّات المتوّج بأعلام الشرف والكرامات المعلّم الفاضل والعالم العامل الفيلسوف الروحانيّ فم الذهب الثاني الراشد لرعيّته غاية الإرشاد المناضل في سبيل الحقّ والسداد. السريع بالجواب في معرفة الجدال. الوارد لممتحنه أورد الرجال الأبطال. الهادم منازل أفكار الضالّين بواضح المقاييس والبراهين. الذي تعليمه جوهر محيي النفوس. السعيد بالله البطريك الأنطاكيّ ماري إسطفانوس. السالك في آثار الآباء القديسين المقيم في الدير المعروف بقنّوين. كان سابقًا كاهنًا بهذه الكنيسة [كنيسة مار الياس في حلب] يكرز وينهي عن الأضرار للخطأة العذاب المؤبد وجتة الخلد للأبرار. ولم يُسمع عندنا مثل كرزّه التالي لشروح البيعة السعيدة الحاوية لمثل هذا الكنز الحافظ لكتب العتيقة والجديدة. فإنّه شخّصها بالأراء المقبولة عند جميع الطوائف وأظهر لهم بيّنات يأمن فيها الخائف من الحائف. ولوّح بتلوّجات بها أذرف عيون الخطأة وأبكاها. وصرّح بتصرّجات آدمى بها قلوب العصاة وأنكأها [وأنكأها]. ويذّر حبات المحبّة الإلهيّة في أراضى القلوب ويبرّن أنّها تسرّ العيوب. فيا لمعجزات وعظه كم أحييت من نفوس كان الحوّب [أي الإثم والهلاك والبلاء] قد أماتها. ويا لآيات خطبه كم فكّت قلوبًا من أسر ذنوبها بأصوات نغماتها، ويا لعجائب تعليمه كم جذبت إليها عقولًا بدقائق جذباتها. ويا لغرائب تقويمه كم ردّت اعوجاج طبائع إلى مطبوعاتها. فإنّه لم ير نصًّا إلّا شرّحه ولا مشكلًا إلّا أوضحه. ولا معنى مقفلًا إلّا فتحه. فطوباه من إمام لم يدعّ عيوبًا برعيّته إلّا وبادر بإزالتها من أذهانهم. وهنيئًا له من راعٍ صالح لم يدعّ ذرّة من

الفضيلة إلا ألزمتهم تعاليمه باكتسابها ولا غادرة صغيرة من الرذيلة إلا منعتهم مواعظه من ارتكابها: فسأل السيّد المسيح الموصوف بالأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس أن يلبس علينا رئاسته وينعم علينا بفهم معاني ما أورده والعمل بما ذكره. أمين".

يوسف ابن الشّمّاس جرجس،

شهادة يوسف ابن الشّمّاس جرجس بن يوسف في تأثير مواعظ الدويهي على المؤمنين في حلب، والتي علّقها على صفحة من مخطوط المكتبة المارونيّة في حلب رقم ٨١١، والمنسوخ سنة ١٩٨٢ يونانيّة المقابلة لسنة ١٦٧١م. وهو مخطوط بحوي فرض مار رومانوس ومار إيلياس ومار جرجس ومار تداوس، نقلًا عن الخوري ناصر الجميل، "المواعظ" في البطريك إسطفان الدويهي، حياته ومؤلفاته، طبعة أولى، بيروت، [د.ن.]، ١٩٩١، ص ١٤٠ - ١٤١.

###

...البطريك إسطفان الدويهي من بطاركتنا العظام، الذين تركوا لنا تراثًا دينيًا وثقافيًا ووطنياً جليلاً...

يصحّ فيه ما يقوله يشوع بن سيراخ "أجسادهم دُفِنَتْ بسلام وأسماءهم تحيا مدى الأجيال". ترك لنا البطريك الدويهي الكبير تراثًا دينيًا بمثله وعلمه، لقد طار له صيت قداسة في حياته ونُسِبَتْ إليه حوارق ومكرمات، وأصبح قبره بعد مماته محجًا لأهل التقى، يتمسّحون بحجارته، ويلتمسون شفاعة صاحبه. وقد أجمع مؤرّخو سيرة حياته على القول: بأنه من أوثق الناس صلة برّته، وكان يوزع أيّامه ولياليه على الصلاة...

البطريك مار نصر الله صغير،

نقلًا عن: العلامة البطريك إسطفان الدويهي ضمير الموارنة الإنسانيّ واللاهوتيّ، شهادات وحقائق ونشاطات، منشورات رابطة البطريك الدويهي الثقافية، زغرتا- إهدن، ١٩٩٢، ص ٥.

###

تألّق وتخلّى الدويهي في كلّ أعماله، لمع كتلميذ في مدرسة القرية في إهدن الحبيبة، وكذلك في المدرسة روما المارونيّة حيث نال شهادة الملفنة.

برز كمدرس ومربّ ومعلّم في إهدن، وفي "كُتّاب حلب المارويّ"، وفي مدرسة جعيتا. واشتهر كمؤلّف، طرّق فكره حقول العلم الواسعة: اللاهوت، والتاريخ، والليتورجيا والطقوس، والموسيقى الكنسيّة، وأدب المراسلات، وفرّ الوعظ. وترك لنا آثارًا خالدة هي لبّ التراث النابض أبدًا، ومثالٌ يُتّدى في التواصل والحوار الحضاريّ، والانفتاح والالتقاء بين الشرق والغرب.

وفرض الدويهي نفسه كراعٍ ومدبّرٍ مسؤولٍ عن شعبه وأُمَّته في ظروف صعبةٍ وحرّجةٍ وقاسيةٍ وسَطَّ أنواء هذا الشرق المضطرب دومًا، وفي خضمّ الاضطهاد، دسائس الباشوات، وظلمٍ وتعسّفٍ وجشع الحكّام الأقربين والأبعدين، وفي معترك التحوّلات، لاسيّما عند انقضاء حكم سلالة المعنّيين وبداية حكم الأمراء الشهابيّين.

لم ييأس، ولم يلتو له عزمٌ، بل جاهد، وتممّ سعيّه، وحسب له ذلك برًّا.

الأب كرم رزق،

"مقدمة عامّة" في البطريك إسطفان الدويهي، ندوة بمناسبة الذكرى المئويّة الثالثة لوفاته، الإثنين ٢ أيار ٢٠٠٤، جونية، لبنان، منشورات جامعة الروح القدس - الكسليك، ٢٠٠٩، ص ٥-٦

###

تبدو طريقة الدويهيّ في عرض أوزان الشعر السريانيّ فريدةً بنوعها، إذ لم يسبق أن درسَ العلماءُ القدماءُ مليًّا هذا الباب. ربّما سبقَتْ طريقة الدويهيّ محاولاتٌ مجتزأة، في مضمّار الشعر السريانيّ ولكنّها لم تطرح نظامًا يحصرها ويرتّبها ويقونها كالذي عرضه الدويهيّ.

كانت محاولة الدويهيّ جريئةً وصعبةً شائكة:

جريئة لأنّ صاحبها لم يأخذ كما يبدو من أيّ مرجع سابق. وتجلّت هذه الجرأة في أنّه تناول جميع الأشكال الواردة في الكتب الطقسيّة وفيها الأوزان السريانيّة الواضحة، كما فيها أوزان غير ثابتة تُرجمت عن اليونانيّة أو نُظمت على مثالها. الأشكال والأنواع التي ذكرها الدويهيّ هي: باعوث - ميمر - مدرش - سوغيتو - فل - قلّ يونبو - عنيبو - مزمورو - أوليتو...

أمّا صعوبةُ مهمّته وخطرها فيمكن [فيكمنان] في حالة النصوص التي وجدها الدويهيّ في المخطوطات الطقسيّة التي أخذ منها مجموعته. مخطوطاتٌ تشوبها أخطاءٌ الخطّاط أو تغييراتٌ مقصودة طرأت على النصّ الأصليّ. لم يكن بإمكان الدويهيّ، على ما أظنّ، أن يُجريّ مقارنةً نقديةً على المخطوطات التي استقى منها. ولو فعل لما استطاع أن ينهي عمله في سنين معدودة.

فهذا النوع من الأبحاث يتطلّب فريق عملٍ متكاملٍ، ووقتًا وتجميعًا ونقدًا لمخطوطات كثيرة منتشرة اليوم في عدّة مكتبات في العالم.

في النهاية وباختصار، يسعنا أن نقول: إنّ مجموعة الدويهيّ وترتيبها، هي أهلٌ للتقدير لأنّها فريدةٌ وجريئةٌ ولكن تحتاج، إلى جانب منهجٍ علميٍّ متماسك، إلى مراجعة المشكلة بالرجوع إلى المخطوطات السريانيّة الأقدم، كما إلى مقارنةٍ لمختلف مجموعات الألحان في الكنائس السريانيّة.

إنّ من يُحلِّكُ كتابَ الدويهي بتمهّلٍ وانتباهٍ يخشعُ أمامَ شخصيّةِ فذةٍ ذاتِ منطقٍ حازمٍ وعقلٍ راجحٍ، توصّلَ رغمَ عدمِ توقُّرٍ معطياتِ العلمِ الحديثِ في أيّامه، إلى تنظيمٍ مُرضٍ للألحانِ السريانيّةِ لم يتفوّقَ فيه عليه أحدٌ بعد ثلاثمئة وأربع سنوات من كتابه "شرحًا مختصرًا في رؤوسِ المقالاتِ السريانيّةِ وأوزانها".

الأب لويس الحاج،

"البطريك إسطفان الدويهي: أوزان الشعر السريانيّ ورؤوس مقالاته، خلاصة" في البطريك إسطفان الدويهي، ندوة بمناسبة الذكرى المئويّة الثالثة لوفاته، الإثنين ٣ أيار ١٧٠٤، جونية، لبنان، منشورات جامعة الروح القدس - الكسليك، ٢٠٠٩، ص ١٥٤-١٥٥.

###

ما هي الطريقة التي سلكها الدويهي في التاريخ؟ في تاريخ الأزمنة تبع التسلسل الزمنيّ في تدوين الحوادث والأخبار، أي التسلسل الحوّلّي على السنين. ولم يكن أوّل من احتطّ هذه الطريقة في التدوين التاريخي، فقد سبقه إليها كثيرون من المؤرّخين العرب والمسلمين منذ أواخر القرن الثاني، وأولهم الهيثم بن عدي. إلّا أنّ الدويهي كان أوّل مؤرّخ دوّن أخبار المنطقة، ولا سيّما جبل لبنان والمارونيّة، بالعربيّة، معتمدًا، إلى جانب المؤرّخين المسلمين، مؤرّخي الفرنجة والبيزنطيين من قبل. إنّما كان مُقتضِبًا في سرده الأحداث بحيث ينتقي المهمّ منها، وهو يكاد يقصر أخباره، في ما خصّ الموارنة، على الأساقفة والبطاركة والباباوات، وأحيانًا الحبساء. [...].

في الإجمال، فإنّ مصادر الدويهي ومراجعته كانت كتابيّة، سواء السريانيّة منها أو الكرشيّية، أو العربيّة، أو اليونانيّة، أو اللاتينيّة، أو الإيطاليّة، أو الفرنسيّة. ونادرًا ما يلجأ إلى الإسناد أو إلى رواية أشخاص من معاصريه.

وكحبر يُعنى بالتأريخ كان الدويهي يقرأ ما كُتب فوق عتبات الكنائس ومذابجها، ويسعى وراء المخطوطات والمستندات المبعثرة في القرى والمعابد، كما فعل في قرية حدشيت، فيجمع المعلومات من هوامش الكتب القديمة ويأخذها من على جدران الكنائس والأديار، كما يسمع إلى بعض العارفين في التاريخ من بني قومه، أمثال داود بن جوسلين الحدشيتي والمطران يعقوب الدويهي نسيبه.

وهناك في كتبه الدفاعيّة تصميم ظاهر في الكتب الثلاثة الأولى، وتنسيق في الأفكار، وترقيم للمواضيع المطروقة، ودقّة في التفاصيل وفي التنظيم، ومنهجية في الردود على أحصام العقيدة أسلوبًا وفكرًا. وهناك أيضًا منطق يستند إلى التاريخ، ويعتمد الوقائع، وتغلب عليه حرارة الجدل ويسوده الحماس للإيمان.

جورج هارون،

"أسلوب الدويهي في البحث التاريخي" في تاريخ البطاركة الموارنة، معاناة ستّة عشر قرنًا، الطبعة الأولى، عمشيت، لبنان، [د.ن.].، ٢٠٠٩، ص ٢١٥-٢١٧.

###

"نمدح الرجال النجباء آباءنا الذين وُلدنا منهم" (ابن سيراخ ١:٤٤)

عندما ابتداءً يشوع بن سيراخ في سفره المشهور بذكر آباء العهد القديم الذين دبروا الشعب الإسرائيلي بحكمة وقداسة قال: "نمدح الرجال النجباء آباءنا الذين وُلدنا منهم".

ونحن قبل أن نبتدئ بذكر أب كبير من آباءنا الموارنة الذين ربّوا أمّتنا وغدّوها بتعاليمهم وإرشاداتهم، كم يجدر بنا أن نقول مع ابن سيراخ: "نمدح الرجال النجباء آباءنا الذين وُلدنا منهم. فيهم أنشأ الربّ مجدًا كثيرًا وأبدى عظمته منذ الدهر"^١.

وما ذلك الأب الكبير الذي، بكلّ فخر، نذكره ونمدحه اليوم إلا ذلك البطريرك العظيم الخالد إسطفان الدويهيّ الإلهديّ الذي يُعدُّ، كما في مُعتقّد ابن سيراخ، من الذين كانوا "أئمة الشعب بمشوراتهم وبفهم كتب أمّتهم... فنالوا مجدًا في أجيالهم، وكانت أيّامهم أيّام فخرٍ وقد خلّفوا اسمًا يُخبر بمدائحهم... أجسامهم دُفنت بالسلام وأسمائهم تحيا مدى الأجيال. الشعوب يحدثون بحكمتهم والجماعة تُخبر بمدائحهم"^٢.

وإذا ما ذكرنا أبانا الدويهيّ نكون عاملين بوصيّة أمّنا الكنيسة المارونيّة المقدّسة التي توصينا في صلاة الفَرَض قائلة: "لنذكر آباءنا الذين علّمونا في حياتهم أن نكون أبناء الله"^٣.

الأب يوحنا يشوع م.ل. الخوري،

"توطئة" في البطريرك إسطفان الدويهيّ الإلهديّ، طبعة مزيدة ومنقّحة، [د.م.]، منشورات جامعة الحكمة، ٢٠١٠، ص ١١-١٢.

###

هو البطريرك العلامة والقديس إسطفان الدويهيّ، فخر كنيسته المارونيّة. وُلد يوم ٢ آب ١٦٣٠ في إهدن. والده ميخائيل ومرتم. أرسله البطريرك عميره إلى روما العام ١٦٤١ فأتقن فيها، إلى الإيطاليّة، اليونانيّة واللاتينيّة والعبرانيّة والسريانيّة، بالإضافة إلى معرفته لغته العربيّة. نال الملقب في الفلسفة ثمّ في اللاهوت وبقي بعد ذلك مدّة في روما، باحثًا في مكتباتها عن كلّ ما يمتّ إلى الكنيسة المارونيّة بصلّة، مطالعًا وناسخًا وكاتبًا؛ ثمّ عاد إلى لبنان العام ١٦٥٥ ورُسم كاهنًا في ٢٥/٣/١٩٥٦. أمضى عشر سنوات بين إهدن وحلب يدرّس الأولاد، ويَعبُط في الكنائس، ويساعد النفوس. وسرعان ما تألّق نور علمه وفضائله فرُسم مطرانًا على قبرس العام ١٦٦٨، وبعد سنتين انتُخب بطريركًا وهو في الأربعين من عمره. دامت مدّة بطريركيّته من ١٦٧٠ حتّى وفاته، أي ٣٤ سنة، عانى في أثناءها الكثير

^١ ابن سيراخ ١:٤٤-٢

^٢ المصدر نفسه ٤:٤٤، ٧، ٨، ١٤-١٥

^٣ صباح السبت من صلاة فرض الكاهن المارونيّ.

من المضايقات سامه إياها بخاصّة أعداء الإيمان والحكّام حتّى إنّه اضطرّ إلى الهرب، فلاذ بالمشايخ الحازنيتين بكسروان ثمّ، في بلاد الدروز، بقرية مجدل المعوش.

وعلى الرغم من حياته المضطربة، أغنى المكتبة المارونيّة والعربيّة بمؤلّفات كثيرة بالغة الأهميّة عالج فيها الكثير من الموضوعات على نحو غير مألوف في كنيسته حتّى أيامه. دعوى تقديسه تتقدّم الآن في دوائر الفاتيكان.

الأب كميل حشيمه،

"الدّويهي، إسطفان (١٦٣٠-١٧٠٤)" في المؤلّفون العرب المسيحيّون من قبل الإسلام إلى آخر القرن العشرين، الجزء الرابع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، دار المشرق، ٢٠١٢، ص ٢٤٣.

####

فاتحة الثمار الفلسفيّة التي أعطتها المدرسة المارونيّة هي البطريرك إسطفانوس بطرس الدّويهي. هو من الرّعال الأولى التي تحرّجت من هذه المدرسة. ناقش أطروحته الفلسفيّة عام ١٦٥٠ أمام لجنة كان يرئسها الكاردينال لويديجي كابوني. وقد قدّمها باللغة اللاتينيّة تحت عنوان:

Conclusions Philosophicae, Eminentissimo Principi Aloysio S.R.E. Cardinali Capponio a Stephano Edenensi Collegii Maronitarum Alumno dicatae, Romae, 1650.

نالت أطروحة الدويهي استحسان اللجنة. ثمّ سعى بعد ذلك إلى إقامة محاوره فلسفيّة، فاختار البطريرك الصّفراوي، بطريرك الطائفة وقتئذٍ، رئيسًا شرفيًّا لها تديليًا منه على تمسّكه بلبنان [...].

لما صار بطريركًا، شجّع بدوره مثل هذه المحاورات الفلسفيّة بعد أن انقطعت في المدرسة المارونيّة، وجعلها تحت حماية مريم العذراء. منذ ذلك الحين أخذ الطلبة يجتمعون في أوقات محدودة، فيعطى بعضهم، أو كلّ منهم، موضوعًا فلسفيًّا، فيُنشئه ليُلقيه على مسامع الحاضرين ويذود عنه. وهكذا يعتاد الطالب إبراز تصوّراته في محضّر الناس بكلام صحيح وتفكير سديد.

كمال يوسف الحاج،

"البطريرك إسطفانوس بطرس الدويهي (١٦٣٠-١٧٠٤)" في المؤلّفات الكاملة، المجلّد الحادي عشر، في الفلسفة اللبنانيّة (٢)، الطبعة الأولى، جونبة، مطابع الكرّم الحديثة؛ بيت الفكر - أسّسيّة كمال يوسف الحاج، ٢٠١٤، ١١/موجز/٨٦٢-٨٦٤.

####